دراســات

د. عبد النبي اصطيف

عوامل تدفع بالأعمال الأدبية المعاصرة إلى دائرة الأدب العالمي

يلاحظ المتتبع للمشهد الأدبي العالمي أن بعض الأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة (لباولو كويللو، وإيزابيل ألندي، ومايكل كريتون، وأومبرتو إيكو، وخوان غويتسولو، ودان براون، وأمين معلوف، وهشام مطر، وأهداف سويف، ومارغريت آتوود وغيرهم) بدأت تشق طريقها بقوة نحو دائرة الأدب العالمي، بل إن بعضها بات يسرح ويمرح في هذه الدائرة بفضل سعة انتشاره شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، واتساع دائرة قُرّائه (باللغة الأصلية أو مترجما أو عن طريق لغة وسيطة كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية) ومتلقيه عن طريق التلفاز أو السينما، غير عابئ، فيما يبدو، بما يسمى حكم الزمن الذي استبقه واقعا يفرض نفسه على الباحثين والدارسين للأدب العالمي world literature.

وقد يعزو البعض هذا المسير الواثق لهذه الأعمال نحو العالمية إلى جملة من العوامل الخارجية التي توافرت لها ومكّنتها من المضي قُدما باتجاه دائرة الأدب العالمي، بل أهّلتها لدخولها دخول الفاتحين. غير أن من الإنصاف الإشارة إلى أن هذه الأعمال تنطوي على قيم جمالية وإنسانية بالقدر الكافي الذي يساعد على انتشارها خارج حدود بلد المنشأ، فضلا عن دور الفضول الإنساني في تعرّف "الآخر" القريب والبعيد نتيجة ثورة الاتصالات الحديثة والمعاصرة، والتي بدّدت – في الحقيقة- مفهوم "البعيد" وجعلته ميسور التناول بفضل تقاناتها المذهلة.

إن اتساع تداول هذه الأعمال بوصفه واقعا يؤكد انتماءها إلى مجموعة الأعمال التي تشكل لبّ الأدب العالمي بعد تجاوزها لعائقي اللغة والثقافة من جهة، وتجاوزها لحد المكان من جهة أخرى، مغضية طرفها عن حكم الزمن، وممنِّية النفس بتجاوزها خلوداً تطمح إليه في المستقبل.

والناظر إلى عملية التداول الواسعة التي تحققت لهذه الأعمال يرى بسهولة أنها تزامنت مع ظاهرة العولمة التي شهدها العالم في العقود الأربعة الأخيرة، والتي أسهمت بدورها في عولمة تلقي هذه الأعمال ويسّرت تداولها على هذا النطاق الواسع بالترجمات من جانب، وباستثارة الفضول الإنساني من جانب آخر، بعد تحوّل الكوكب الأرضي إلى قرية كونية تتجاور فيها الأمم والشعوب والأقوام والدول تجاور الجيران الجُنُب، إذ لم يعد ثمة من جار بعيد، فقد تقلصت كل المسافات بثورة الاتصالات المعاصرة، واتسعت دائرة الفضول الإنساني لتشمل الكرة الأرضية برمتها، وغدت الفروق الثقافية مجرد شاهد على غنى التنوع الإنساني، ولم تعد عائقا يحول بين التفاهم والتعاون بين الأمم والشعوب والأقوام المختلفة، وبعبارة أخرى بات الاختلاف في عيون عصر العولمة ينظر إليه على أنه تنوع diversity يغني الحياة الإنسانية ويلوِّنها ويجعلها أكثر إثارة، ويحفز الإقبال عليها بدنيوية لم يَعرفها البشر من قبل، بل غدا السعي إلى تعرف "الآخر" "The Other" المختلف مطلبا ملحاً من متطلبات الاستجابة الإيجابية لعصر العولمة.

ولعل السؤال الذي يستوجب الإجابة في هذا المقام هو: ما العوامل الخارجية التي تدفع بهذه الأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة إلى دائرة الأدب العالمي وتوسع

دائـرة تـداولها (قـراءة وتلقّيـا متنوعـا عـن طريـق مختلـف وسـائل الإعـلام المرئيـة والمسـموعة، أو مـن خـلال الفـن السـابع، والفـن الثـامن) حتـى تجعـل حضـورها في هذه الدائرة واقعا لا سبيل إلى نكرانه؟

• أول **هـذه العوامـل هـو مـا تقـوم بـه الحكومـات القوميـة، والمؤسسـات الإقليميـة، والدوليـة مـن دعـم لعمليـات الترجمـة والنشـر والتوزيـع مـن لغـات هـذه الأعمـال الأدبيـة الحديثـة والمعاصـرة إلى اللغـات العالميـة الأخـرى،** ولاسـيما اللغـة الإنكليزيـة، الـتي غـدت لغـة مشـتركة بـين الكـثير مـن الشـعوب والأمـم والجماعات والأفراد، يستعملها أكثر من ثلث سكان الكـرة الأرضية. ذلك أن حكومات الدول الغنية من أمثال الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا الاتحادية (والاتحاد السوفييتي سابقا)، والصين، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، وإيطاليا، وغيرهـا تمـوّل بـرامج واسـعة لترجمـة أعمالها الأدبيـة إلى اللغـات الأخـرى، وتـدعم نشـر هـذه الأعمـال باللغـات الهـدف، وتـروّج لهـا مـن خـلال نشـاطات مراكـزهـا الثقافية المنتشرة في مختلف عواصم العالم، والتي تشمل المحاضرات، وجولات الكُتّاب، والمهرجانـات، والمـؤتمرات وغيرهـا، ممـا يعـزز انتشـار هـذه الأعمـال ويوسع دائرة تداولها بين القراء والمتلقين في عالم اليوم. وثمة بعد ذلك ما تقوم به المؤسسـات الإقليميـة (الفرانكفونيـة)، والدوليـة (اليونيسـكو)، مـن نشـاطات تخـدم تـداول الأعمـال الأدبيـة الـتي تنتجهـا الأمـم والشـعوب الـتي تنتمـي إلى عـالم الجنوب وتساعد من ثم ترجمتها ونشرها في حواضر العالم المتقدم ولغاته.

• وثاني هـذه العوامـل هـو **الـدور الـذي تؤديـه الجوائـز (العالميـة، والدوليـة، والقارّيـة، والإقليميـة، والوطنيـة) في تحفيـز عمليـات الترجمـة والنشـر ومـن ثم توسـيع دائـرة قُـرّاء هـذه الأعمـال الأدبيـة الحديثـة والمعاصـرة وتلقيهـا في مختلـف أنحـاء الكوكب الأرضي وبمختلف اللغات العالمية وغير العالمية.**

• وثالث هذه العوامل **هو ما تؤديه المهرجانات الأدبية والفنية، والمؤتمرات، والعلاقات الشخصية ومعارض الكتب، وما يرافقها من نشاطات متصلة بتقليد ضيف الشرف، من تحفيز لعمليات الترجمة والنشر باللغات المختلفة.**

• ورابع هذه العوامل **الدور الذي تؤديه أقسام اللغات الأجنبية في الجامعات في مختلف أنحاء العالم في تحفيز الاهتمام بآداب الآخر**، فليس ثمة من جامعة

حديثة حريصة على تصنيفها الأكاديمي في قوائم الجودة لا تدرِّس لغات العالم الرئيسية وآدابها ولغاتها في أقسام خاصة بها في كليات الآداب واللغات، مما يشجع على انتشار هذه الآداب وما ينشر فيها من أعمال حديثة ومعاصرة من خلال قراءتها بلغاتها الأم، أو مترجمة إلى مختلف اللغات العالمية، والأقل عالمية.

- وخامس هذه العوامل هو ما يمكن أن تؤديه **الدوريات العالمية المرموقة (الثقافية، والمحكمة) من دور في الترويج للأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة بما تقدمه من مراجعات، ودراسات نقدية، ودراسات مقارنة لها، مما يحفز على قراءتها بلغاتها الأم، أو بواحدة من اللغات العالمية، أو مترجمة إلى لغة أقل عالمية،** ويمكن أن يذكر المرء في هذا المقام دوريات مراجعة من مثل **ملحق التايمز الأدبي Times Literary Supplement، ومجلة نيويورك للكتب New York Review of Books، ومجلة لندن للكتب London Review of Books، وملاحق** الصحف والمجلات الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية، فضلا عن مجلات عريقة مرموقة من مثل **World Literature Today الأدب العالمي اليوم** وغيرها.

- أما سادس هذه العوامل فهو ما تقوم به **وسائل الإعلام المعاصرة من ترويج لهذه الأعمال بالحديث عنها في البرامج الثقافية، أو في تحويلها إلى مسلسلات، أو أفلام روائية، فضلا عما تبثه من مقابلات مع كُتّابها، وتغطيات ومتابعات للنشاطات الثقافية القومية، والإقليمية، والدولية من مهرجانات، ومعارض كتب، ومؤتمرات**. وربما كان من أهم مظاهر هذا الترويج لقراءة هذه الأعمال بلغاتها الأم، أو مترجمة إلى اللغات العالمية المختلفة، واللغات الأقل عالمية، ما تقوم به شركات الإنتاج السينمائي العالمية من تحويل للأعمال الروائية إلى أفلام عالمية يسهل على أي متلق استقبالها وتذوقها من خلال الصورة المشفوعة بالترجمة المصاحبة، أو الدبلجة، التي باتت رائجة غاية الرواج في هذه الأيام، تقوم بها شركات خاصة بهذا الضرب من الترجمة المعبر عن شخصيات الفيلم، وتيسر من ثم تلقيها المباشر بأقل الجهود. ويمكن أن يذكر المرء في هذا السياق أعمالاً لكتاب معاصرين من أمثال جون لوكاريه، وجون فاولز، ودان براون، ومايكل كريتون، وأومبرتو إيكو، وغيرهم.

• وأما سابعها فهو **ازدهار الدراسات المقارنة، وعنايتها بمسألة التفاعل بين آداب العالم، وما يخلفه هذا التفاعل من أثر في توسيع دائرة تداولها خارج أوطانها.**

• وأما ثامنها فهو ما تقوم به **الجاليات المهاجرة في مغترباتها عندما تحاول تأكيد هويتها الهجينة من خلال تحفيز الاهتمام بآدابها الأصلية والتشجيع على ترجمتها ودراستها ومن ثم انتشارها في تلك المغتربات.**

• وأما تاسعها فهو دور **العلاقات الدولية في حفز الاهتمام بالأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة وبخاصة العلاقات المتوترة أبداً فيما يبدو ما بين الغرب والإسلام.**

• وأما عاشرها فهو ما تقدمه **بعض القضايا السياسية من تحفيز على الاهتمام بترجمة الأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة الخاصة بالمدافعين عنها والمتبنين لها** كما هو الشأن في قضية التمييز العنصري في جنوب إفريقية، أو قضية فلسطين، أو قضايا الفقر والمرض والتنمية والبيئة في عالم الجنوب.

• وأما آخرها فهو **الكتابة بلغة عالمية مشتركة** بين مجموعة من الأمم والشعوب والمجتمعات الإنسانية كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية التي تمنح العمل، فضلاً عن فرصة قراءته وانتشاره بين قُرّاء هذه اللغة أوتلك، فرصة الترجمة إلى لغة أوربية أخرى أو أكثر، ولاسيما عند الكتابة عن موضوع خاص "بالآخر"، وتقديم رؤية داخلية له.

غير أن سؤالاً ملحاً يطرح نفسه بعد هذا الحديث المقتضب عن العوامل المعززة لمسيرة الأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة تجاه دائرة الأدب العالمي، وهو **ما الذي يمكن أن يفعله العرب** لدعم مسيرة أعمالهم الأدبية الحديثة والمعاصرة بشكل خاص نحو العالمية، خاصة وأنهم، فيما يزعم بعضهم، لا يملكون ما ينبغي لهم من الموارد المادية والبشرية التي يمكن أن تخدم بفاعلية مسعى هذه الأعمال الأدبية للدخول إلى دائرة الأدب العالمي.

صحيح أن العديد من الدول العربية الحريصة على نشر أدبها خارج حدود بلدانها لا تملك الموارد المادية والبشرية لتتعهد القيام بترجمة الأعمال الأدبية

الحديثة والمعاصرة، ولكنها في الوقت نفسه تستطيع الإفادة من واقع ما تملكه من إمكانات.

• وأول هذه الإمكانات **المؤسسة الجامعية ولاسيما أقسام اللغات الأجنبية فيها**، ذلك أن تطوير تعليم الآداب الأجنبية ولغاتها في هذه الجامعات يسهم في خلق موارد بشرية قادرة، من حيث القوة، على ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى تلك اللغات، وهو أمر لا غنى عنه إن كانت هذه الدول معنية بنشرها على نطاق واسع في العالم، وقد تتمكن بعدها من إشراك مؤسسات المجتمع الاقتصادية والمالية في عملية الترجمة من خلال تمويلها أو، على الأقل، الإسهام في هذا التمويل، وربما في نشر الترجمات وتوزيعها لاحقاً.

• وثاني هذه الإمكانات **التوسع في المشاركات العربية (البحثية والثقافية) في المؤتمرات العلمية والثقافية، وفي المهرجانات الثقافية والأدبية، وفي معارض الكتب العالمية وما يرافقها من نشاطات ترويجية** (ولا سيما عندما يكون الأدب العربي، أو الكتاب العربي، أو الثقافة العربية، ضيفاً على هذه المعارض) وفي **الكتابة للمجلات العلمية المحكمة والثقافية، عن الأعمال الأدبية العربية الحديثة والمعاصرة.**

• وثالثها **الإفادة من التسهيلات التي تقدمها منظمات دولية أو إقليمية** من مثل منظمة اليونسكو، أو الفرانكوفونية وغيرهما، وما تخصصه من موارد مالية لتشجيع ترجمات آداب الجنوب.

• ورابعها تشجيع **الكتابة بلغة عالمية مشتركة** كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية لما تيسره من فرص أوسع للانتشار بين قراء هذه اللغات من جهة، وما تتيحه من فرص الترجمة إلى لغات عالمية وغير عالمية أخرى من جهة ثانية.

والمهم في كل ذلك هو عدم الركون إلى مبادارت الآخرين فقط، والاكتفاء بها، أو انتظار حكم الزمن، بل المبادرة إلى **دمج الأدب العربي الحديث والمعاصر في متن الأدب العالمي من خلال العمل الجاد والواعي بآليات هذا الدمج وطرقه**، وقل اعملوا.